المكتبة الخضراء للأطفال

٣١

نهر الذهب

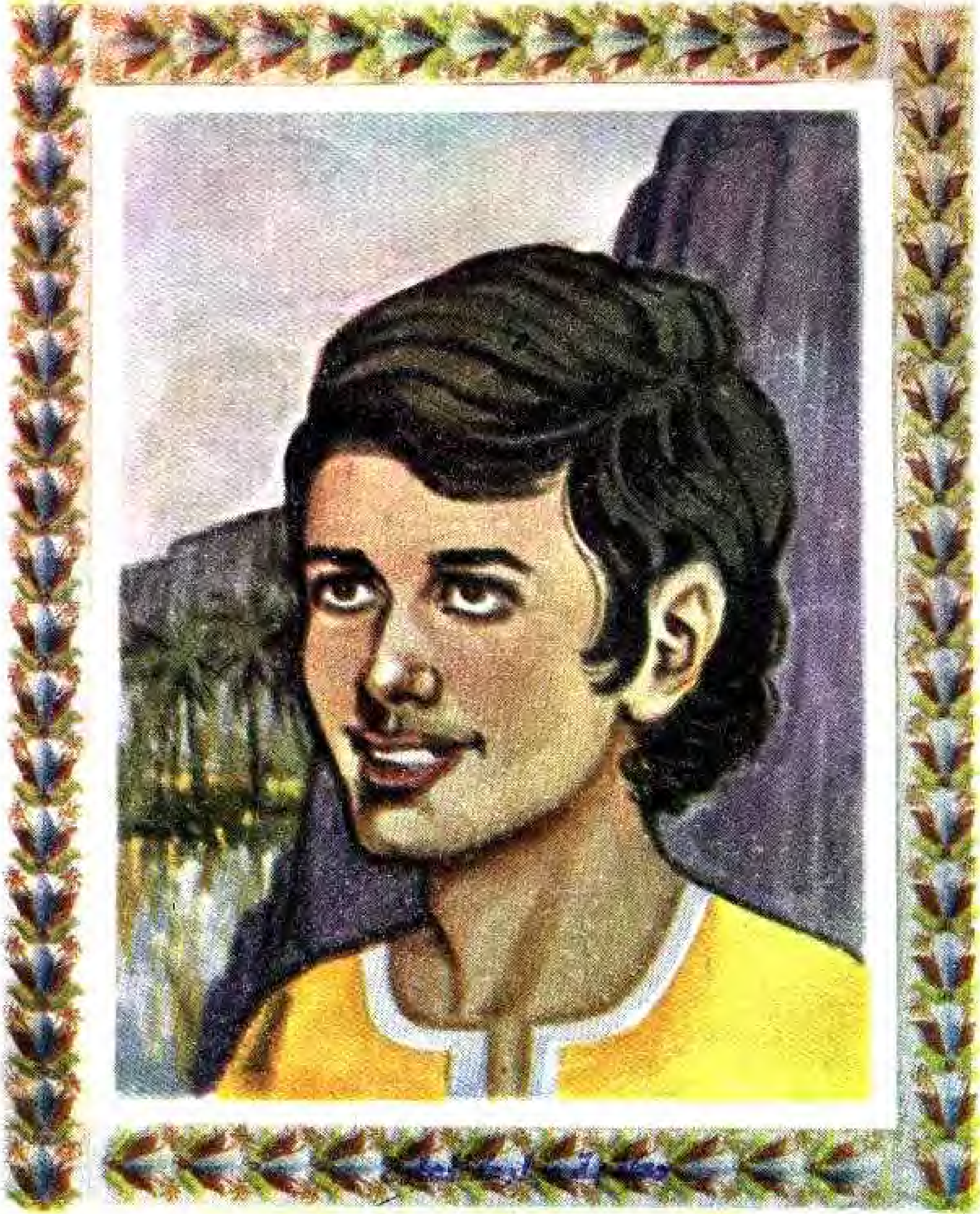


بقلم: يعقوب الشارونى

دار المعارف

المكتبة الخضراء للأطفال

(٣١)



نهر الذهب

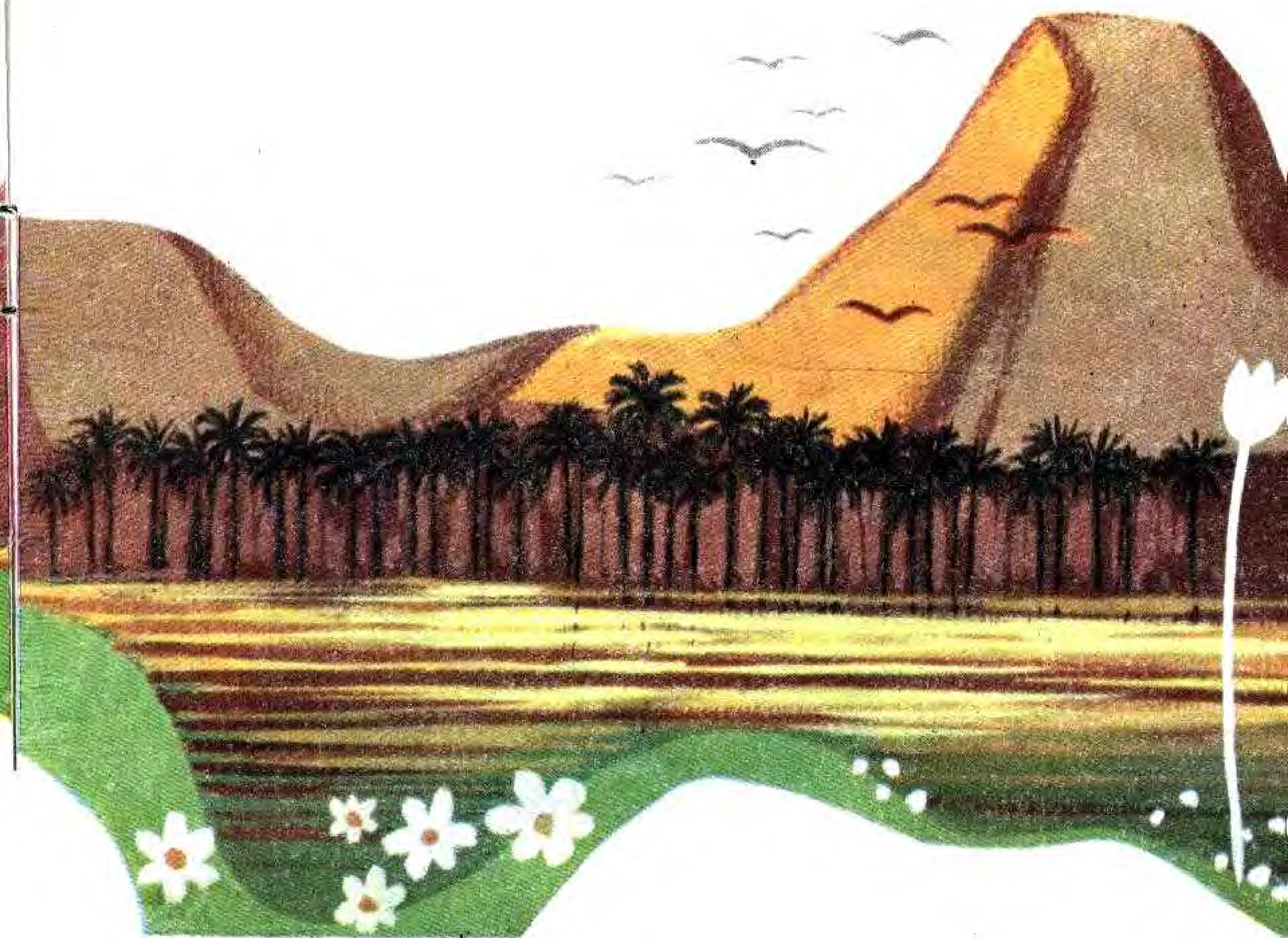
بقلم: **يعقوب الشاروني**

الطبعة الثامنة



فى مَكَانٍ جَبَلِىٍّ مُنْعَزِلٍ ، بِبَلَدٍ مِنْ بِلاَدِ الشَّرْقِ ، كَانَ يُوجَدُ فى قَدِيمِ الزَّمَانِ وَادٍ خَصِيبٌ ، تُحِيطُ بِهِ مِنْ جَمِيعِ جَوانِبه جِبَالٌ صَخْرِيَّةٌ شَدِيدَةُ الانْحِدَارِ .

وَمِنْ هَذِهِ الجِبَالِ ، كَانَ يَنْبُعُ عَدَدٌ مِنَ الأَنْهَارِ السَّرِيعَةِ ، يَتَدفَّقُ وَاحِدٌ مِنْهَا فى مَجْرًى يَمْتَدُّ ، عِنْدَ مَنْبَعِهِ ، عَلَى سَطْحِ صَخْرَةٍ عَالِيَةٍ .



وَلارْتِفَاعِ هٰذِه الصَّخْرَةِ ، كَانَتْ أَشِعَّةُ الغُروبِ الذَّهَبِيَّة تَغْمرُ شَلاَّلاَتِ ذَلِكَ النَّهْرِ ، حتَّى تبْدُو كأَنَّها أَسْلاَكٌ مِنَ الذَّهَبِ ، وَلِهَذَا سَمَّاهُ النَّاسُ فى الْمَناطِقِ المُجَاوِرَةِ « النَّهْرَ الذَّهَبِىَّ » . وكَانَتِ الأَنْهارُ كُلُّهَا ، بِمَا فِيهَا النَّهرُ الذَّهَبِىُّ ، تَنْحَدِرُ إِلَى الْجَوانِبِ الأُخْرَى مِنَ الْجِبالِ ، بَعِيدًا عَنْ ذَلِكَ الوَادِى ، لٰكِنَّ السُّحبَ كَانَتْ تَتَكَاثَفُ دَائِمًا فَوْقَ الوادِى ، ثُمَّ تَسْقُطُ أَمطَارًا تَمُدُّ أَرْضَهُ بِالحيَاةِ والنَّماءِ .



وكَثِيرًا مَا حَدَثَ أَنْ أَصَابَ القَحْطُ والجَفَافُ الْبِلاَدَ المُجَاوِرَة ، ولَكِنَّ الأَمْطَارَ لَمْ تَكُنْ تَكُفُّ ، حتَّى فى تِلْكَ الأَوْقَاتِ ، عَنْ غَمْرِ الوَادِى الصَّغِيرِ بِالمَاءِ اللاَّزِمِ لِلحَيَاةِ والرِّىِّ ، لِذَلِكَ اعْتَادَ النَّاسُ أنْ يُسَمُّوه « وَادِى الكُنُوزِ » .

وَكَانَتْ جَمِيعُ أَرَاضِى ذَلِكَ الوَادِى مِلكًا لِثَلاثَةِ إِخْوَةٍ ، هُمْ : « نُعْمَان » و « رَسْلان » و « شِهَاب »

وكَانَ الأَخَوانِ الكَبِيرَان « نُعْمَانُ » و « رَسْلاَن » يَتَعيَّشَانِ مِنْ فِلاَحَةِ أَرَاضِي وَادِي الكُنُوزِ ، ولَكِنَّهما كَانَا غَايَةً فى الحِرْصِ وخُشُونَةِ الإِحْسَاسِ ، حتَّى أَنَّهُمَا قَتلا كُلَّ شَيْءٍ لايُقَدِّمُ لَهُمَا رِبْحًا أَوْ مَالاً ، ولِهَذَا ذَبَحا البَلابِلَ المُغَرِّدَةَ لأَنَّها تَنْقُرُ الفَاكِهَةَ ، وقَتَلا الأَرَانِبَ لأَنَّها تَلْتَهِمُ طَعَامَ البَقَرِ ، وصَادَا عَصَافِيرَ الحَصَادِ الَّتِى اعْتَادَتْ أَنْ تُغَنِّى طَوالَ الصَّيْفِ ، واَقْتَلَعَا أَشْجَارَ الْوَرْدِ لأَنَّها لاتَأْتِى بِثِمَارٍ . وبِهٰذِه الطَّرِيقَةِ ، جَمَعَ الأَخَوانِ أَكْبَر ثَرْوَةٍ فى تِلْكَ البِلاَدِ .

ومَعَ ذَلِكَ لَمْ يَحْدثْ مُطْلَقًا أَنْ أَحْسَنَا إِلَى فَقِيرٍ ، وَلَمْ يُفكِّرا قَطُّ أَنْ يَشْكُرَا اللهَ عَلَى نِعْمَتِهِ ، لِذَلِكَ أَطْلَقَ النَّاسُ عَلَيْهِمَا لَقَبَ « الأَخَوانِ القَاسِيَانِ » .

ولَكِنَّ الأَخَ الأَصغَرَ « شِهَاب » لَمْ يَكُنْ يُشْبِه أَخَوِيهِ مُطْلَقًا ، كَانَ شِهابُ فَتًى لَمْ يَتجَاوزْ الثانِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ ، لَطِيفًا ، مُحِبًّا لِكُلِّ مَخْلُوقٍ ، وَلَمْ يَكُنْ يُوافِقُ أَخَوَيْهِ عَلَى شَيْءٍ مِمّا يَفْعَلانِ ، لِذَلِكَ جَعَلا مِنْهُ طَاهِيًا لَهُمَا ، ومَعَ ذَلِكَ ، كَانَ كُلُّ مَا يَسْتَطِيعُ الحُصُولَ عَلَيهِ مِنْ طَعَامٍ ، هُوَ مَا يَتَخلَّفُ عَنْ أَخَوَيْهِ بَعْدَ أَنْ يَأْكُلا ويَشْبَعا .



وسَارَتِ الأُمُورُ عَلَى هَذَا الْمِنْوالِ زَمَنًا طَوِيلاً ، وأَخِيرًا جَاءَ صَيْفٌ اضْطَرَبَ فِيهِ الطَّقْسُ جدًّا ، حتَّى أَنَّ جَمِيعَ البِلَادِ المُجَاوِرَةِ أَصْبحتْ فى أَسوإِ حَالٍ : فَقَدْ تَسَاقَطَتْ ثَمَراتُ البُرتُقَالِ مِنْ أَشْجَارِهَا قَبْلَ أَنْ تَنْضَجَ ، ولَمْ يَأْتِ القَمْحُ بِمَحْصُولٍ مَا ، ومَاتَ البَقَرُ والغَنَمُ ، ولَمْ يَنْجُ مِنْ هَذَا كُلِّهُ إلاَّ وَادِى الكُنُوزِ ، فَقَدْ ظَلَّتِ المَحْصُولاتُ فِيهِ وَفِيرَةً . وحَيَوانَاتُ المَرَاعِى سَمِينَةً .

ولَجَأَ النَّاسُ جَمِيعُهمْ إِلَى الأَخَوَيْنِ ، يَشْتَرُونَ مِنْهُمَا حَاجَتِهِمْ مِنَ

القَمْحِ . وكَانَ الأَخَوَانِ يَسْتَغِلاَّنِ حَاجَةَ النَّاسِ إِلَى قَمْحِهِمَا ، فَيَأْخُذَانِ فى مُقَابِلِهِ أَثْمَانًا فَاحِشَةً . أَمَّا الفُقَرَاءُ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ فى مَقْدُورِهِم دَفْعُ تِلْكَ الأَثْمَانِ البَاهِظَةِ ، فَقَدْ كَانُوا يَسْقُطونَ مِنَ الجُوعِ والإِعْيَاءِ بِجِوارِ بَابِ الأَخَوَيْنِ القَاسِيَيْنِ .

وأَخَذَ الشِّتَاءُ يَقْتَرِبُ ، وأَقْبَلَ يَوْمٌ قَارِسُ البُرُودَةِ ، فَقَالَ الأَخَوَانِ الكَبِيرَانِ لأَخِيهِمَا الصَّغِيرِ « شِهَاب » قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَا : « عَلَيْكَ بِالبَقَاءِ فى المَطْبَخِ لِمُرَاقَبَةِ هَذِهِ القِطْعَةِ الشَّهِيَّةِ مِنَ اللَّحْمِ فى أَثْنَاءِ شَيِّهَا عَلَى النَّارِ . وإِيَّاكَ أَنْ تَسْمَحَ لِمَخْلُوقٍ بِدُخُولِ المَنْزِلِ ، واحْذَرْ إِعْطَاءَ شَيْءٍ لأَيِّ إِنْسَانٍ ! ؟ ؟ ثُمَّ تَرَكَاهُ وانْصَرَفَا .

وجَلَسَ « شِهَاب » قُرْبَ النَّارِ ، لأَنَّ البَرْدَ كَانَ شَدِيدًا ، وفَجْأَةً ، سَمِعَ صَوتًا مِنْ نَاحِيَةِ البَابِ ، فَتَوجَّهَ إِلَى النَّافِذَةِ وفَتَحَهَا ، وفُوجِئَ بِمُشَاهَدَةِ أَغْرَبِ قَزْمٍ رَآهُ فى حَيَاتِه : كَانَ لَهُ أَنْفٌ طَوِيلٌ جدًّا ، وَوَجهٌ شَدِيدُ الاحْمِرَار ، وشَعْرٌ أَبْيَضُ كَالثَّلْجِ ، طَوِيلٌ ومُسْتَرسِلٌ عَلَى ظَهْرِه . وَلَمْ يَكُنْ طُولُ الْقَزْمِ يَتَجَاوزُ أَرْبعَ أَقْدَامٍ ونِصْفِ قَدَم ، وعَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةٌ مُرتَفِعَةٌ كَأَنَّهَا طُرْطُور ، ارْتِفاعِهَا مثل طُولِهِ هُوَ نَفْسه . وكَانَ يَرْتَدِى



مِعْطَفًا عَظِيمَ الاتِّسَاعِ ، أَصَابَه بَلَلٌ شَدِيدٌ ، بِسَبَبِ الأَمْطَارِ الغَزِيرةِ الَّتِى كَانَتْ تَتَساقَطُ فَوْقَهُ .

وانْتَابَتْ « شِهابُ » دَهشَةٌ بالِغَةٌ لِهَذَا الَّذِى رَآهُ ، حتَّى إِنَّه لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَنْطِقَ بِحَرْفٍ ، فَصَاحَ السَّيِّدُ القَصِيرُ : « إِنَّنى أَرْتَجِفُ مِنَ البَرْدِ ، دَعْنِى أَدْخُلُ » .

فَقَالَ « شِهَابُ » بِحُزْنٍ : « كَمْ كُنْتُ أَوَدُّ أَنْ أُلَبِّىَ طَلَبَكَ ، وَلَكِنْ قَدْ يَضْرِبُنِى أَخَوَاىَ إِذَا فَكَّرتُ فى إِدْخَالِ أَىِّ غَرِيبٍ إِلَى المَنْزِلِ ، مَاذَا تُرِيدُ ؟ » فَصَاحَ الْقَزْمُ الكَبِيرُ السِّنِّ غَاضِبًا : لاأُرِيدُ إِلاَّ شَيْئًا مِنَ الدِّفْءِ

قَالَ « شِهابُ » لِنفْسِهِ : « إِنَّ الرَّجُلَ يَرْتَجِفُ مِنْ شِدَّةِ الْبردِ .. سأَدَعُهُ يَدْخُلُ لِفَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ فَقَطْ » ، وَتَرَكَ النَّافِذَةَ ، واتَّجَه إِلَى البَابِ ، وَفَتَحهُ ، وفى أَثْنَاءِ دُخُولِ السَّيِّدِ القَصِيرِ ، هَبَّتْ رِيحٌ عَاصِفَةٌ مَلأَتِ المنْزِلَ ، حتَّى ارْتَجَفَ « شهاب » مِنَ البرد الَّذِى نَفَذَ إِلَى عِظَامِهِ ، فَأَسْرَعَ يُغْلِقُ البَابَ وَرَاءَ الزَّائِرِ الغَرِيبِ .

وقَالَ السَّيِّدُ القَصِيرُ : « أَنْتَ وَلَدٌ طَيِّبٌ . لاَتَخْشَ شَيْئًا مِنْ أَخَوَيْكَ ، فَسَأَتَحدَّثُ إِليهما فى الأَمْرِ » ، فَصَاحَ « شِهاب » : « أَرْجوكَ



أَلاَّ تَفْعَلَ ، فَأَنا لاَ أَسْتَطِيعُ إِبقاءَكَ هُنَا حتَّى يَجِيئَا . . » ، فَقَالَ الزَّائِر الغَرِيبُ : « إِلَى مَتَى أَسْتَطِيعُ البَقَاءَ إِذَنْ ؟ » فَأَجَابَ « شِهَابُ » ، مُتَرَدِّدًا : « فَتْرةً قَصِيرَةً . . حتَّى تَجِفَّ مَلابِسكَ قَلِيلاً . . » فَسَارَ القَزَمُ إِلَى المَطْبَخِ ، وجَلَسَ بِجِوارِ النَّارِ .

ولكِنَّ مَلابِسَ السَّيِّدِ القَصِيرِ لَمْ تَظْهَرْ بِهَا أَيَّةُ عَلاماتٍ تدل عَلَى أَنَّهَا آخِذَةٌ فى الجَفَافِ ، بَلْ أَخَذَ المَاءُ يَتَساقَطُ مِنْها ، ويَنْحَدِرُ فى جَدَاوِلَ

فِضِّيَّةٍ إلى الأَرض ، وتَأَمَّل السَّيِّدُ القَزْمُ اللَّحْمَ الَّذِى كَانَ يُشْوَى عَلَى النَّارِ ، وأخيرًا قَالَ : « إِنَّ هَذِهِ القِطْعَة مِنَ اللَّحْمِ تَبْدُو شَهِيَّةً جدًّا . أَلا تَسْتَطِيعُ إِعْطَائى شَرِيحَةً صَغِيرةً مِنْهَا ؟ » .

فَقَالَ « شِهَابُ » وقَدْ فُوجِئَ بِطَلَبِ الزَّائِرِ القَزْمِ : « كَلاَّ . لاَأَسْتَطِيعُ » ، فَقَالَ الزَّائِرُ الغَرِيبُ : « إِنَّنى فى حَاجَةٍ إِلى شَىْءٍ آكُلُهُ ، فَلَمْ أَتَذَوَّقْ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ مُنْذُ يَوْمَيْنِ مُتَتَالِيَيْنِ » .

وَكَانَ الزَّائِرُ يَتَحدثُ فى صَوْتٍ حَزِينٍ ، فَلَمْ يَقْوَ « شِهَابُ » عَلَى أَنْ يَقُولَ ثَانِيةً : « لاَ » ، فَقَالَ : « لَقَدْ أَخْبَرنِى أَخواى أَنَّه سَيَكُونُ فى إمْكَانِى اليومَ الحصُولُ عَلَى قِطْعَةِ لَحْمٍ ، وأَسْتَطِيعُ أَنْ أَمنحكَ نَصِيبِى لاَغَيْر » فَعَادَ الرَّجُلُ القَزْمُ يَقُولُ : « إِنكَ فى الحقِّ وَلَدٌ طَيِّبٌ جدًّا » . .

وأَخَذَ « شِهَابُ » يَقْطَعُ للرَّجُلِ شَرِيحَةً مِنَ اللَّحْمِ وهُوَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ : « لَنْ أَكْتَرِثَ حتَّى إِذَا ضَرَبَنِى أَخواى . . ! » .

* * *

لَكِنْ فى اللَّحْظَةِ الَّتِى كَانَ فِيهَا يَقْتَطِعُ شَرِيحَةً كَبِيرَةً مِنَ اللَّحْمِ ، تَرَامَتْ مِنْ نَاحِيَةِ البَابِ ، ضَجَّةٌ عَالِيَةٌ .



ودَخَل « نُعْمانُ » إلى المَطْبَخِ وَصاحَ : « مَنْ يَكُونُ هٰذَا ؟ » فَقَال « شِهَابُ » وقَدِ اشْتَدَّ رُعْبُهُ : « أَخِى العَزِيز .. لَقَدْ كَانَ .. يَرْتَجِفُ مِنَ البَرْدِ .. » .

ورَفَعَ « نُعْمان » يَدَهُ بِعصًا غَلِيظَةٍ ، وفى اللَّحْظَةِ الَّتى كَانَ سَيَهوى بِها عَلَى رَأْسِ « شِهَاب » ، رَفَعَ السَّيِّدُ القزْمُ طرْطُورَهُ ، واعتَرضَ طَرِيقَ العَصَا قَبْلَ أَنْ تَمسَّ رَأْسَ الصَّبِىِّ الطَّيِّبِ ، ومَا إِنْ ضَربتِ العَصَا

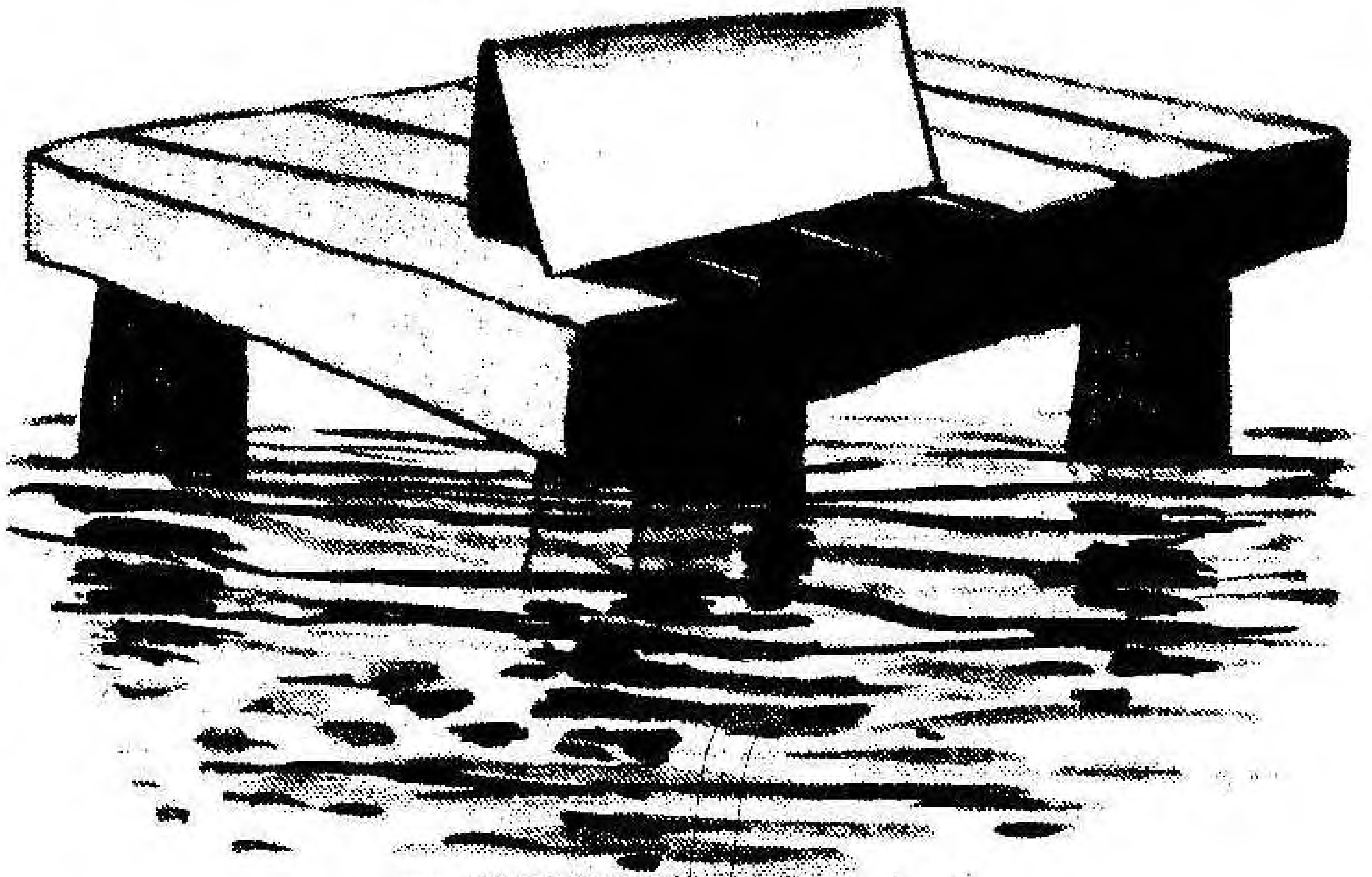
الطُّرْطُورَ ، حَتَّى أُفْلتتْ مِنْ يَدِ « نُعْمان » ، وطَارَتْ فى الهَواءِ ، واسْتقَرَّتْ بِجوارِ الحَائِطِ فى نِهايَةِ المَطْبَخِ !

وصَاحَ « نُعْمان » فى الزَّائِرِ الغَرِيبِ : « مَنْ أَنْتَ ؟ » وسَأَلَهُ « رسْلان » فى صَوْتٍ قَبِيحٍ : « مَاذَا تُرِيدُ ؟ » وعَادَ « نُعْمان » يَصِيحُ : « تُحْسِنُ صُنْعًا إِذَا غَادَرْتَ المَنْزِلَ بِسُرْعةٍ ! » .

وَنَظَرَ إِليهما السَّيِّدُ القَزْمُ فى رَجَاءٍ ، وقَالَ : « إِنَّ اليَومَ شَدِيدُ الْبُرودَةِ ! لاتَطْرُدَا فِيهِ رَجُلاً كَبِيرَ السِّنِ مِثْلِى . انْظُرَا إِلى شَعْرِى الأَبْيَضِ .. » .

فَقَالَ « رسْلانُ » : « إِنَّ لديْكَ حَقًّا مِن الشَّعْرِ مَا يَكْفِى لِيُدفِئَكَ اخْرُجْ ! » .

فَأَجَابَ القَزْمُ : « إِنَّنِى فى حَاجَةٍ إِلى شَىْءٍ مِنْ طَعَامٍ ، أَمَا تُعْطِيانَنِى كِسْرَةَ خُبْزٍ قَبْلَ أَنْ أَذْهَبَ ؟ » فَصَاحَ « نُعْمَان » : « هَلْ تَظُنُّ أَنَّنا نَصْنَعُ الخُبْزَ لِنَمْنَحَهُ إِلى ذَوِى الأُنُوفِ الحَمْرَاءِ مِنْ أَمْثَالِكَ ؟ ! » وقَالَ « رَسْلان » وهُوَ يَمُدُّ يَدَهُ لِيُمْسِكَ الرَّجُلَ القَصِيرَ مِنْ ذِرَاعِهِ : « اذْهَبْ . . » .



ولَكِنْ مَاإِنْ لَمسَتْ يَدُ « رسْلان » ذِرَاعَ السَّيِّد القَزْمِ ، حتَّى ارْتَدَّتْ إلى الوَرَاءِ ، ثُمَّ طَارَ هُوَ نَفْسُهُ عَبْرَ المَطْبَخِ ، كَمَا حَدَثَ لِلعَصَا تماماً . وسَقَطَ بِجوارِ الحَائِطِ فى النَّاحِيَةِ الأُخْرَى ! وتَملَّكَ « نُعْمان » غَضَبٌ هَائلٌ بِسَبَبِ مَا حَدَثَ لأَخِيهِ « رَسْلان » . فَانْدَفَعَ نَحْوَ القَزْمِ لِيقْذِفَ بِهِ خَارِجَ المنزِل ، ولَكِنْ مَا إِنْ لَمسَ الرَّجُلَ ، حَتَّى طَارَ هُوَ أَيْضاً عَبْرَ الحُجْرَةِ ، وسَقَطَ فى الرُّكْنِ البَعِيدِ بِجوارِ « رَسْلان » والعَصَا ! ! .

وهُنَا وَضعَ الرَّجُلُ القَزْمِ طرطُورَهُ فَوْقَ رَأْسِه ، وقَالَ فى هدوءٍ

للأخوينِ القَاسِيَيْنِ : « أَيُّها السَّيِّدانِ . سَأَزُوركُما فى تَمامِ السَّاعَةِ الثَّانِيَة عَشْرَةَ عِنْدَ مُنْتصفِ هَذِه اللَّيْلَةِ ، وبَعْدَ أَنْ عاملْتُمانِى هَذِه المُعَامَلَةِ ، لَنْ تُدْهَشَا أنْ تَكُونَ تِلْكَ هِىَ زِيَارَتِى الأَخِيرَةِ لكُمَا » .

وخَرَجَ السَّيِّدُ القَزْمُ ، وَأَغْلَقَ بَابَ المَنْزِلِ خَلْفَهُ فى صَوتٍ كَالرَّعْدِ . وفى اللَّحْظَةِ عَيْنِهَا ، مَرَّتْ أَمَامَ النَّافِذَةِ كُتْلَةٌ مِنَ السَّحَابِ الأَسْوَدِ الكَثِيفِ .

* * *

وكَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ مُرَوِّعَةً مُخِيفَةً : فَقَدْ أَخذَتِ الرِّيحُ تَعْصِفُ فى شِدَّةٍ ، والمَطَرُ يَنْهمِرُ بِغيرِ توقُّفٍ . وأَغْلَقَ الأَخوانِ بَابَ المَنْزِلِ وجَمِيعَ نَوافِذِهِ ، ثُمَّ نَامَا فى غُرْفَتِهِمَا .

وفى تَمامِ السَّاعَةِ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ عِنْدَ مُنْتَصفِ اللَّيْلِ ، أَيْقَظَتْهُمَا ضَجَّةٌ مُخِيفَةٌ ، وانْدَفَعَ بَابُ غُرفَةِ نَوْمِهِمَا مَفْتُوحًا بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ . وجَلَسَ الأَخوانِ فى فِرَاشَيْهِمَا يُحدِّقانِ فى الظَّلامِ . فَوجَدَا المَاءَ يَملأُ الحُجْرَةَ . وفى وسَطِهَا كُرَةٌ هَائِلَةٌ مِنَ المَاءِ تَدُورُ بِعُنْفٍ حَولَ نَفْسِهَا ، وفَوقَ قِمَّتِهَا اسْتَلْقَى السَّيِّدُ القَزْمُ فى رَاحَةٍ واسْتِرخاءٍ ، كَأَنَّمَا يَرْقُدُ عَلَى فِرَاشِهِ ، فى حِينِ



أَطَاحَتِ الرِّيحُ بِسَقْفِ الحُجْرَةِ كُلِّهِ !

وقَالَ القَزْمِ المُسِنُّ : « إِنَّ فِرَاشَكُما قَدْ بَلَّلهُ الماءُ ، وما عَادَ يَسْمَحُ لَكُما بِالنَّومِ الهَنيءِ ! . . لعلَّكُما تُحْسِنَانِ صُنْعاً إِذا ذَهَبْتُما إِلى حُجْرَةِ أَخيكُما . إِنَّها جَافَّةٌ كَمَا اعْتَادَها « شِهَاب » دَائِماً » .

وَلَمْ يَنْتَظِرِ الأَخَوانِ القَاسِيَانِ لِيَسْمَعَا أَكْثَر مِنْ ذَلِكَ ، بَلِ انْدَفَعَا

عَدَوًا إِلَى حُجْرَةِ أَخِيهِمَا الصَّغِيرِ.

وصَاحَ السَّيدُ الْقَزْمُ خَلْفَهُمَا : « سَتَجِدَانِ بِطَاقَةً بِاسْمِى عَلَى مَائِدَةِ المَطْبَخِ . . تَذكرا ، هٰذِه زِيَارَتِى الأَخِيرَة لَكُما . . » .

* * *

وَطَلَعَ النَّهَارُ أَخِيرًا . وفى الصَّباحِ ، تَطلَّعَ الأَخَوانِ مِنْ نَافِذَةِ « شِهَاب » الصَّغِيرَةِ ، وإِذْ بِوادِى الكُنُوزِ قَدْ فَقَدَ كُلَّ ما كَانَ يَسْتَمِدُّ مِنه هَذَا الاسْمَ الجَمِيلَ . لَقَدْ حَملتْ مِياهُ السَّيْلِ فى طَرِيقِهَا جَمِيعَ الأَشْجَارِ ، والقَمْحَ ، والبَقَرَ ، والغَنَمَ ، وكُلَّ نَبَاتٍ أَوْ حَيَوانٍ ، وتَرَكَت المِنْطَقَةَ خَالِيَةً جَرْدَاءَ ، يَغْمُرُهَا المَاءُ والطِّينُ .

ودَخَلَ الأَخَوانِ المَطْبَخَ ، وتبيَّنَا أَنَّ المِيَاه والرِّيَاحَ قَدْ حَمَلَتْ كُلَّ مَا كَانَ بِهِ مِمَّا قَضَيَا يَوْماً بَعْدَ يَومٍ فى جَمْعِهِ وتَكْدِيسِهِ : القَمْحَ ، والنُّقُودَ ، والذَّهَبَ ، ولَمْ تَبْقَ هُنَاكَ سِوَى بِطَاقَةٍ صَغِيرَةٍ مِنَ الوَرَقِ عَلَى مِنْضَدَةِ المَطْبَخِ ، كُتِبَ عَلَيْهَا بِحُرُوفٍ كَبِيرَةٍ وَاضِحَةٍ : « سَيِّدُ الأَمْطَارِ والرِّياحِ » .

* * *

لَقَدْ صدَق سَيِّدُ الأَمْطَارِ والرِّيَاحِ ، فبَعْدَ زِيَارَتِهِ الأَخِيرةِ تِلْكَ لِوادِى الكُنُوزِ ، لَمْ يَزُرْه ثَانِيَةً ، ومَضَى العَامُ بِأَكْمَلِهِ ، دُونَ أَنْ تَسْقُطَ عَلَى الوَادِى قَطْرَةٌ واحِدَةٌ مِن مَاءِ الأَمْطَارِ ، وأَصْبَحَ مِسَاحَةً مِنَ الأَرْضِ القَاحِلَةِ الجَرْدَاءِ .

وأَخِيرًا ، لَمْ يَجِدِ الإِخْوَةُ مَفَرًّا مِنْ تَركِ المَكَانِ ، فَغَادَرُوه وقَصَدُوا إِلَى المَدِينَةِ المُجَاوِرَةِ . وكَانَتْ كُلُّ نُقُودهم قَدْ ضَاعَتْ ، وَلمْ يَعُدْ لَهُمْ شَىْءٌ سِوَى بَعْضِ الأَوانِى المَصْنُوعَةِ مِنَ الذَّهَبِ .

وقَالَ « نُعْمان » لأَخِيهِ « رَسْلان » وهُمَا يَدْخُلانِ المَدِينَةَ : « دَعْنا نَتَّخِذْ لأَنفُسِنَا دُكَّاناً لِتجَارَةِ الذَّهَبِ ، فَنَصْهرُ مَا لَدينَا مِنْ ذَهَبٍ ، ونَمْزُجُهُ بِمَوادَّ رَخِيصَةٍ مِثل النُّحاس ، ولَنْ يَكْتَشِفَ أَحدٌ أَنَّا نَبِيعُ ذَهَبًا مَغْشُوشًا » .

وسُرَّ الاثْنَان لِهَذَا الاقْتِراحِ ، فَاسْتَأْجَرا مَنْزِلا ، وأَقَامَا فِيهِ بَوْتَقةً لِصَهرِ الذَّهَبِ مَعَ المَوادِ الأُخْرَى .

ولَكِنَّ النَّاسَ امْتَنعُوا عَنْ شِرَاءِ الذَّهَبِ المَغْشُوشِ ، كَمَا أَنَّ الأَخَوَيْنِ اعْتَادَا ، كُلَّمَا بَاعَا شَيْئًا ، أَنْ يَتوجَّها إِلى مَشْرَبِ الخَمْرِ ، حَيْثُ

يُبدِّدانِ كُلَّ ما تَجمَّعَ لَديْهِما مِنْ مالٍ . لِذلِكَ لَمْ يَستَعِيدَا أى قَدْرٍ مِنْ ثَرْوتِهما الضَّائِعَةِ .

وَلَمْ يَبْقَ فى النِّهايَةِ إلاَّ قَدَحٌ كَبِيرٌ . كَانَ الأَخوانِ قَدْ أَعْطَياه « لِشِهابٍ » . وكَانَ « شِهَاب » يُحِبُ ذَلِكَ الإناءَ وَيحْرِصُ عَلَيهِ . كَانَ وِعَاءً قَدِيمًا جِدًّا ، نُقِشَ عَلَى وَاجِهَتِهِ وَجْه إنْسانٍ كَبيرٍ فى السِّنِّ ، وكَانَ الوَجْه قَدْ صِيغَ مِن الذَّهَبِ الخالِصِ الْبَرَّاقِ ، ولَهُ شَعْرٌ ذَهَبِىٌّ طَوِيلٌ ، وَأَنْفٌ أَحْمرُ ، وعَيْنانِ غَاضِبتَانِ . ولَمْ يَكْترِثِ الأَخوانِ بِأَنَّ ذَلِكَ الإِنَاءِ مِلْكٌ لأَخيهِمَا الصَّغيرِ ، فَقَدْ أَخذَاه مِنه ، وأَلْقياهُ فى البَوْتَقَةِ ، وغَادَرا المَنْزِلَ ، وتَركَا « شِهاب » يُعْنَى بِالنَّار وهىَ تُتِم صَهرَ الإِناءِ الَّذِى كَانَ يُحِبُّهُ كَثِيرًا .

وأَخذَ « شِهَاب » بعْدَ ذِهَابِهما يُحدِّقُ حَزِينًا فى صَدِيقِهِ القَدِيمِ ، وقَدِ اسْتَقرَّ فى البَوْتَقَةِ المُشْتَعلةِ . وأَذَابَتِ النَّارُ شَعْرَ الرَّأْسِ الَّذِى يُزَيِّنُ الإِنَاءَ ، ولَمْ يَبْقَ مِنَ الْوَجْهِ إلاَّ الأَنْفُ الأَحْمَرُ ، والعَيْنانِ الغاضِبتانِ .

وعَبَر « شِهَاب » الغُرفَةَ ، وجَلَسَ بِجِوارِ النَّافِذَةِ يَتطَلَّعُ إلى الجبَالِ المُحِيطَةِ بِوادِى الكُنُوزِ ، حَيْثُ يَنْبعُ النَّهرُ الذَّهَبِىُّ ، وقَالَ لِنَفْسِهِ : « آه





لَوْ كَانَ هَذَا النَّهرُ ذَهبًا حقيقيًّا ! كَمْ يَكونُ هٰذا شَيْئًا رَائِعًا ! .. » .

وإِذَا بِصوتٍ وَاضِحٍ قَوِىٍّ يَأْتِيه بِجِوارِ أُذُنه قَائِلا : « لاَ .. لَنْ يَكُونَ هٰذا رَائِعًا أَبَدًا يا « شِهَاب » ! .. » .

فَصاحَ « شِهَابُ » وَهُوَ يقْفِزُ وَاقِفًا : « مَنْ هٰذا .. ؟ ! » وفَتَّش كُلَّ أَرْكَانِ الحُجْرَةِ فى دِقَّةٍ بَالِغَةٍ ، وخُيِّلَ إِليه أنَّه كُلَّمَا اقْتَربَ مِنَ النَّارِ ، اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْمعَ الصَّوْتَ فى وُضُوحٍ أَكْثَر ، واقْتَربَ مِنَ النَّارِ .

نعم . . كَانَ الصَّوتُ يَصْدرُ مِنَ الإِنَاءِ الَّذِى كَانَ فى النَّارِ .

وقَالَ « شِهَابُ » لِنَفْسِهِ : « يَجِبُ أَنْ أَكُونَ شُجَاعًا » ، وتَقَدَّمَ نحْوَ النَّارِ ، وأَبْعَدَ الإِنَاءَ ، وأَلْقَى نَظْرَةً بِدَاخِلِهِ ، كَانَ الذَّهبُ قَدِ انْصَهرَ كُلُّهُ ، وبَدَا الإِنَاءُ نَفْسُه كَمِرْآةٍ صَافِيَةٍ . لَكِنْ عِنْدَمَا تَطَلَّعَ « شِهَاب » إلى تِلْكَ المِرْآةِ ، لَمْ يَرَ وجْهَهُ ، بَلْ شَاهَدَ الأَنْفَ الأَحْمَرَ والعَيْنَيْنِ الغَاضِبَتَيْنِ اللَّتيْنِ اعْتَادَ رُؤْيتَهُمَا فى وَجْهِ صَدِيقهِ المُسنِّ عَلَى الإِنَاءِ .

وجَاءَهُ الصَّوتُ مِنَ الإِنَاءِ : « هَيَّا يا « شِهَاب » ، إِنَّنى عَلَى اسْتِعْدَادٍ الآنَ . اسْكُبْنِى ! . . » ولَكِنَّ « شِهَاب » لَمْ يَسْتَطِعْ حَرَاكًا . .

عَادَ الصَّوْتُ يَصِيحُ فى غَضَبٍ : « أَلَن تَسْكُبنِى خَارِجَ الإِنَاءِ ؟ إِنَّنى سَأَمُوتُ مِنْ شِدَّةِ الحَرِّ ! » .

وأَخِيرًا تَنَاولَ « شِهَاب » الإِنَاءَ ، وأَمَالهُ عَلَى أَحدِ جَوانِبِه لِيصُبَّ الذَّهَبَ خَارِجَه . ولَكِنْ بَدَلاً مِنْ أَنْ يَنْسَابَ نُهَيْرٌ صَغِيرٌ مِنَ الذَّهَبِ ، خَرَجَتْ فى البِدَايَةِ قَدمَانِ ذَهَبِيَّتَانِ صَغِيرَتَانِ ، ثُمَّ ذِرَاعَانِ ، وأخِيرًا بَرَزَ رَأْسُ صَدِيقِهِ العَجُوزِ الَّذِى يَعْرِفهُ جيِّدًا ، والَّذِى كَانَ رَسْمُ وَجْهِهِ مَنقُوشًا عَلَى وَاجِهَةِ الإِنَاءِ ، وبَدَأَ الرَّجُلُ الصَّغِيرُ بِتَحرِيكِ سَاقَيهِ ، ثُمَّ أَخَذَ يَرفَعُ

رأسه ويخفضه وحول عينيه إلى « شهاب » . ثم سار ثلاث خطوات ذهابًا وجيئةً .

وتأمل « شهاب » هذا الذى حدث أمامه ، وقد زايله بعض خوفه ، وأخيرًا قال : « أرجوك .. هل أنت إناء الشراب الذى كنت أملكه ؟ » .

وعندما سمع الرجل الصغير هذا السؤال ، قال فى هدوء : « أنا ملك النهر الذهبى ! » .

ولم يعرف « شهاب » ماذا يقول ، فعاد الرجل يقول : « إننى ملك النهر الذى اعتدتم أن تسموه النهر الذهبى ، وقد أحالنى ملك أقوى منى إلى ذلك الإناء الذى كنت تعرفه .







ولَكِنِّى بِمَعْونَتِكَ . اسْتَطَعْتُ الآنَ أَنْ أَستَعِيدَ هَيْئَتِى العَادِيَّة .

ولَقَدْ وَجدتُ فِيكَ وَلَدًا طَيِّبًا . لِذَلِكَ سَأُقدِّمُ لَكَ نَصِيحةً ثَمِينَةً : تَسَلَّقْ هَذِهِ الجِبَالَ حَتَّى تَصِلَ إِلَى القِمَّةِ الَّتى يَنْبعُ مِنها النَّهْرُ الذَّهَبِىُّ ، وأَلْقِ فى النَّهرِ بِثَلاثِ قَطَراتٍ مِنَ المَاءِ الطَّاهِرِ ، والشَّخْصُ الَّذِى يَفْعَلُ ذَلِكَ ، سَيَتحوَّلُ النَّهرُ لَهُ إِلى ذَهَبٍ ، دُونَ سَائِرِ النَّاسِ ، وَلَكَ أَنْ تُحَاوِلَ ذَلِكَ مَرَّةً وَاحِدَةً فَقَطْ ، ولَيْسَ لك أن تُعِيدَ المُحَاوَلَةَ ، وإِذَا

حَدَثَ وأَلْقَى شَخْصٌ فى النَّهرِ مَاءً غَيْرَ طَاهِرٍ ، فَإِنَّ ذَلِكَ الشَّخْصَ سَيَتحوَّلُ فِى الحَالِ إلى قِطْعَةٍ مِنَ الحَجَرِ الأَسْوَدِ » .

ومَا إِنْ قَالَ مَلِكُ النَّهرِ الذَّهَبِيّ هَذَا ، حَتَّى اسْتَدارَ ، وسَارَ نَحْوَ النَّارِ ، وخَطَا إِلى أَشَدِّ أَجْزَائِها حَرَارَةً ، ووَقَفَ فِيهِ ، وأَخَذَ قَوامُهُ يَكْتَسِبُ لَونًا شَدِيدَ الاحْمِرَارِ نَتِيجَةَ الحَرَارَةِ العَالِيَةِ ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ صَارَ أَبْيضَ لامِعًا ، ثُمَّ غَمَرَ الحُجْرَةَ ضَوْءٌ وَهَّاجٌ ، وتَلاشَى مَلِكُ النَّهرِ الذَّهَبِيّ . .

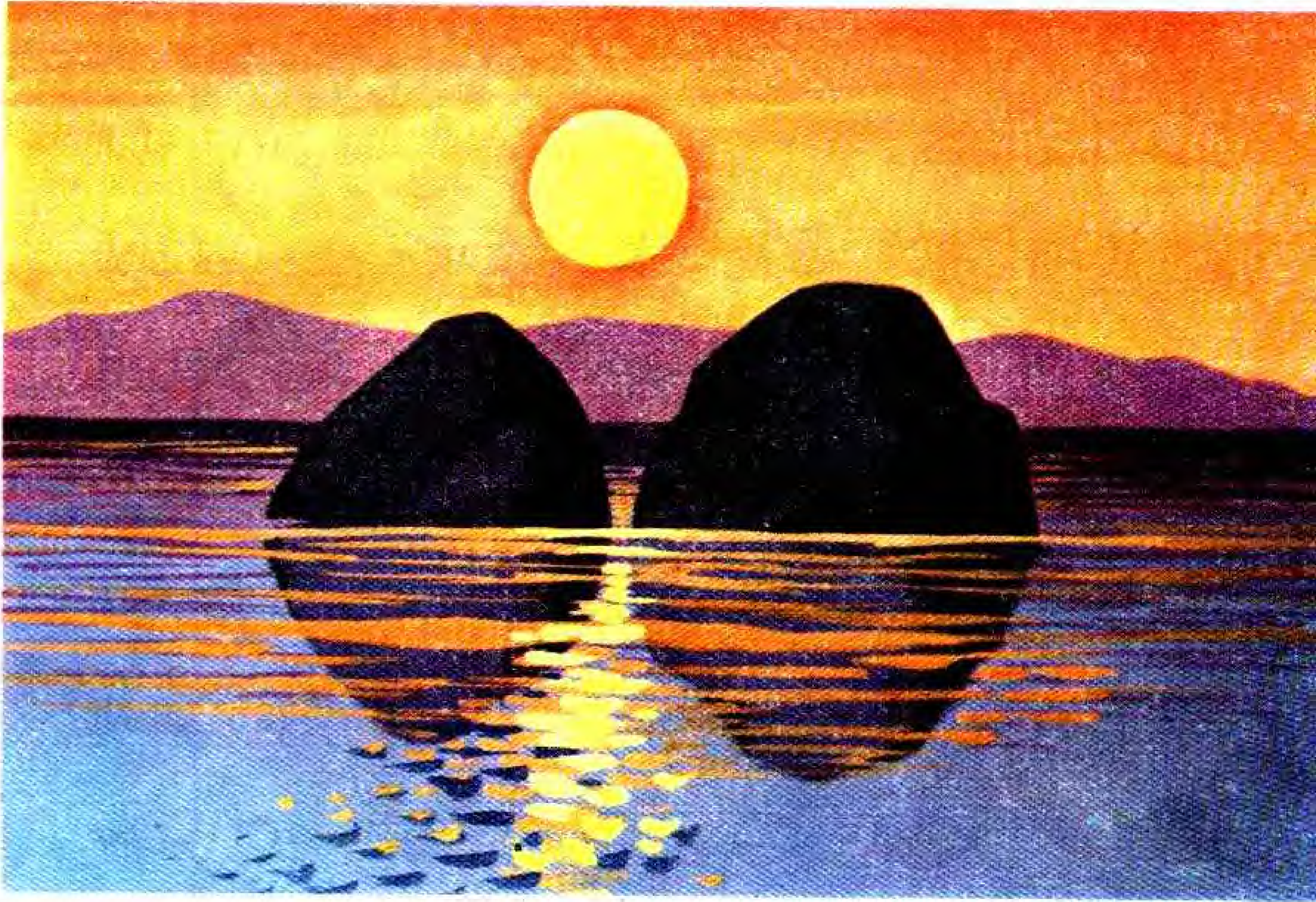
مَا إِنْ مَضَى مَلِكُ النَّهرِ الذَّهَبِى ، حَتَّى دَخَلَ « نُعْمان » و « رَسْلان » . ومَا إِنْ سَمِعَا أَنَّ إِناءَ الشَّرابِ قَدِ اخْتَفَى ، حَتَّى اشْتَعَلَ غَضَبُهما ، وأَخَذا يُكِيلانِ « لِشِهَابٍ » الرَّكلاتِ والصَّفَعاتِ ، ولكِنْ عِنْدَما وَجدا « شِهَابًا » يَسْرُدُ القِصَّةَ نَفْسَها ، أَخَذَ الشَّكُّ يُراوِدُهما فى أَنَّه مِنَ المُحْتَملِ أَنْ يكُونَ صَادِقًا فِيمَا يَقُولُ ، فَأَخَذا يَتَشاجَرانِ حَوْلَ مَنْ مِنْهمَا يَذْهَبُ أَوَّلاً إلى النَّهرِ الذَّهَبِيّ ، وانْقَلبَ الشِّجارُ إلى مَعْرَكَةٍ حَامِيَةِ الوَطِيسِ ، وعِنْدَ مَجِيءِ رِجَالِ الشُّرْطَةِ ، تَمكَّنَ « رسْلان » مِنَ الهَرَبِ ، ولَكِنَّهم قَبَضُوا عَلَى « نُعْمان » وحُكِمَ عَلَيْهِ بِدَفْعِ غَرامَةٍ كَبِيرَةٍ .

ولَمَّا لَمْ يَكُن لَدَيهِ مَا يَسْتَطِيعُ بِهِ سَدَادَ المَبْلَغِ ، فَقَدْ أُلقِىَ بِهِ فى السِّجْنِ .

وكَمْ كَانَ سُرورُ « رَسْلان » عِنْدَما سَمِعَ بِذَلِكَ ، وقَالَ لِنَفْسِهِ : « الآنَ سَأَذهَبُ وَحْدِى إِلى النَّهْرِ الذَّهَبِىِّ » . ولَكِنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ كَيفَ يَسْتَطِيعُ الحُصُولَ عَلَى المَاءِ الطَّاهِرِ ، الَّذِى يَسْتَطِيعُ غَيْرُهُ مِنَ الرِّجَالِ الصَّالِحِينَ أَنْ يَحْصُلُوا عَلَيْهِ ، بَعْدَ أَنْ يَتْلُوَ عَلَيهِ أَحَدُ رِجَالِ الدِّينِ أَدْعِيَتَهُ ، أَمَّا « رَسْلان » فَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَرْضَى أَنْ يُعْطِيَهُ قَطْرَةً مِنْ هَذَا المَاءِ ، لأَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا يَعْرِفُونَ أَنَّه بَلَغَ مِنَ السُّوءِ حَدًّا بَعِيدًا ، لِذَلِكَ تَسَلَّلَ لَيْلاً إِلَى بَيْتِ أَحَدِ رِجَالِ الدِّينِ ، وأَخَذَ قَدْرًا مِنَ المَاءِ الطَّاهِرِ فى إِبْرِيقٍ دُونَ أَنْ يَرَاهُ إِنْسانٌ .

وفى صَباحِ اليوم التَّالى ، غَادَرَ فِرَاشَهُ قَبْلَ أَنْ تَشْرُقَ الشَّمْسُ ، وأَخَذَ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ والشَّرابِ ، وإِبْرِيق المَاءِ الطَّاهِرِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ إِلى الْجِبَالِ .

وبَدَأَ « رَسْلَانُ » رِحْلَتَهُ فى سُرْعَةٍ فَائِقَةٍ ، لِذَلكَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ شَعَرَ بِالتَّعَبِ الشَّدِيدِ عِنْدَما عَبر أَوَّلَ سِلْسِلَةٍ مِنَ التِّلالِ .



وَوَصَلَ إِلَى صَخْرَةٍ هَائِلَةٍ ، تَعذَّرَ عَلَيْه أَنْ يَتسلَّقَها وهوَ يَحْمِلُ مَا مَعَهُ مِنْ طَعَامٍ وشَرَابٍ ، فَترَكَ خَلْفَهُ مَامعَهُ مِنْهُمَا ، وبَعْدَ عَنَاءٍ شَدِيدٍ ، وَصَلَ إِلَى النَّاحِيَةِ الأُخْرَى مِنَ الصَّخْرَةِ .

وبَعْدَ أَنِ اسْتَراحَ فَتْرَةً ، اسْتَعَادَ قُدْرَتَهُ عَلَى مُتَابَعَةِ السَّيْرِ ، وكَانَ طَرِيقُهُ يمتَدُّ عَبْرَ صُخُورٍ جَرْدَاءَ حَمْراء ، والْوَقْتُ قَدْ تَجاوزَ الظُّهرَ ، واليوم حَارٌّ شَدِيدُ الحَرَارَةِ ..

وأَخَذَ « رَسْلانُ » يُحِسُّ بِالإِعْيَاءِ ، وقَدْ أَصْبحَ فى حَاجَةٍ شَدِيدَةٍ إلى المَاءِ ، وكَانَ المَاءُ الطَّاهِرُ هُوَ كُلُّ مَا بَقِى مَعَهُ ، فَقَالَ لِنَفْسِهِ : « إِنَّ ثَلاثَ قَطَراتٍ فِيها الكِفَايَةُ . يُمْكِنُنِى أَنْ أَرتَشِفَ قَلِيلا مِنهُ ، ويَبْقَى بَعْدَ ذَلِكَ قَدْرٌ كَافٍ » .

وكَشَفَ غِطَاءَ الإِبْرِيقِ ، وكَانَ يُوشِكُ أَنْ يرفَعَهُ إِلَى فَمِهِ ، عِنْدَمَا شَاهَدَ شَيْئًا يَتحَرَّكُ عَلَى الأَرْضِ بِجوارِهِ ، وإِذَا بِهِ يرى طِفْلا صَغِيرًا يَكادُ العَطَشُ يُزْهِقُ رُوحَهُ ، وقَدْ بَدَا فى حَاجَةٍ مَاسَّةٍ إلى المَاءِ ، وكَانَتْ عَيْنَاهُ مُغْلَقَتَيْنِ ، وفَمُهُ أَسْودَ جَافًّا . ولَكِنَّ « رسْلان » أَبْعَدَ نَظَرَهُ عَنهُ ، ورَفَعَ الإِبْرِيقَ وشَرِبَ ، ثُمَّ تَابَعَ سَيْرَهُ .

وفى تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، حَجَبَتْ سَحَابَةٌ سوداءُ قُرْصَ الشَّمْسِ . وتَرَامَتْ ظِلالٌ طَوِيلَةٌ سَوداءُ عَلَى سُفُوحِ الجِبَالِ ، كَأَنَّ الطَّبِيعَةَ تحتَجُّ عَلَى مَا فَعَلَ . وانْطَلَقَ « رسْلان » فى سَبِيلِهِ ، وأَخَذَتِ الشَّمْسُ تَمِيلُ نَحْوَ الغُروبِ ، ولَكِنْ لَمْ يَبْدُ أَنَّ حَرارَةَ الطَّقْسِ سَتَنْخَفِضُ . وكَانَتْ نِهَايَةُ رِحْلَتِهِ قَدِ اقْتَرَبَتْ ، فَقَدِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَرَى مَنْبَعَ النَّهرِ الذَّهَبِىِّ . بَعْدَ مسافَةٍ قَصِيرَةٍ مِنْهُ .



وفى تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، طَرَقَتْ أُذنَهُ صَرْخَةٌ خافِتَةٌ ، فَالْتفت لِيرى رَجُلاً كَبيرًا فى السِّنِّ ، مُستلقِيًا على الصُّخُورِ . ورَفَعَ الرَّجُلُ يَدَيْهِ فى ضَراعَةٍ إلى « رَسْلانَ » وصَاحَ : « ماء .. ماء .. » . فَأَجابَ « رَسْلان » : « إِنَّكَ عِشْتَ مافِيهِ الكِفَايَة ، ويُمكِنُكَ أَنْ تَمُوتَ فى سَلامٍ ! » وخَطَا فَوْقَ جسَدِ الشَّيْخِ الظَّمْآنِ ، وَتابَعَ سَيْرَهُ ! ..

وتَوقَّفَ « رسْلان » فَوْقَ الصُّخُورِ المُشْرِفَةِ عَلَى النَّهرِ ، وتَطَلَّعَ إِلى أَسْفَل ، ورَفَعَ ذِرَاعَهُ ، وأَلْقَى بالإِبْرِيقِ فى المَاءِ ..

ومَا إنْ فَعَلَ ذَلِكَ ، حتَّى هَزَّتْ جَسَدَه قَشْعَرِيرَةٌ بَارِدَةٌ ، وسَقَطَ .. وغَطَّت المِياهُ صَوْتَ صَرْخَةٍ يَائِسةٍ ، وهِىَ تَجْرِى فَوْقَ قِطْعَةٍ مِنَ الحَجَرِ الأَسْودِ .

وانْقَضَى اليَومُ التَّالى دُونَ أَنْ يَظْهَرَ أَثَرٌ « لِرَسْلان » ، فَمزَّقَ القَلَقُ قَلْبَ « شِهَابٍ » فَسَارَعَ بالذِّهَابِ إِلَى « نُعْمَانَ » فى سِجْنِهِ ، وسَرَدَ عَلَيْهِ مَا حَدَثَ .

وإِذَا « بِنُعْمان » يَفِيضُ بالبَهْجَةِ لما سَمِعَ ، وقَالَ : « لاشَكَّ عِنْدِى فى أَنَّ





« رَسْلانَ » قَدْ تَحَوَّلَ إِلَى حَجَرٍ أَسْودَ ، وسَيَكُونُ فِى إِمْكانِى الآن أَنْ أَحصُلَ عَلَى كُلِّ الذَّهَبِ لِنَفسِى ! . . » .

ولَكِنَّ الحُزْنَ مَلأَ قَلْبَ « شِهَابٍ » ، فَقَضَى اللَّيْلَ كُلَّه يَبْكِى أَخَاهُ الَّذِى لَمْ يَعُد .

واسْتَطَاعَ « شِهَابُ » أَنْ يَجِدَ عَملاً عِنْدَ أَحَدِ الصَّائِغِين ، فَأَخَذَ يَشْتَغِلُ بِجِدٍّ واجْتِهَادٍ ، حَتَّى اسْتَطَاعَ أَنْ يَجْمَعَ مَبْلَغًا مِنَ المَالِ ، دَفَعَهُ فِى سَبِيلِ الإِفْرَاجِ عَنْ أَخِيهِ « نُعْمَانَ » .

وسُرَّ « نُعْمان » جِدًّا ، وقَال « لِشِهَاب » : إِنَّهُ سَيُعطِيه شَيْئًا مِنْ ذَهَبِ النَّهْرِ . ولَكِنَّ « شِهَاب » لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ مِنْهُ إِلاَّ أَنْ يَذْهَبَ لِيَرى مَا الَّذِى حَلَّ بِأَخِيهِمَا « رَسْلانَ » .

وَأَخَذَ « نُعْمانُ » مابَقِىَ مِنْ نُقُودِ « شِهَابٍ » الَّتِى جَمَعَها بِكَدِّه واجْتِهَادِهِ . وأَعْطَاهَا إِلى رَجُلٍ لاخَلاقَ لَهُ حَتَّى يَحْصُلَ لَهُ عَلى قَدْرٍ مِنَ المَاءِ الطَّاهِرِ ، وسُرْعَانَ مَا أَتَاهُ بِمَا طَلَبَ .

واسْتَيقَظَ « نُعْمانُ » مُبكِّرًا فى صَبَاح اليوم الَّذِى اعْتَزَمَ فِيهِ الرَّحِيلَ ، ثُمَّ تَوجَّه إِلى الجِبَالِ قَبْلَ أَنْ تَشْرُقَ الشَّمسُ . وَوَصَلَ إِلَى الصَّخْرَةِ العَظِيمةِ وتَبَينَ مَا يَكْتَنِفُ عُبورُها مِنْ أَخْطَارٍ شَدِيدةٍ ، لِذَلِكَ اضْطرَّ كَارِهًا أَنْ يَتْرِكَ مَا مَعَه مِنْ طَعامٍ وشَرَابٍ ، حَتَّى يَسْتَطِيعَ اجْتِيازَهَا .

وكَانَ اليومُ حَارًّا ، والهَواءُ سَاكِنًا سَاخِنًا ، لِذَلِكَ فَإِنَّ « نُعْمان » ، وهُوَ يَنتَقِلُ مِنْ صَخْرَةٍ إِلَى صَخْرَةٍ ، أَخَذَ يَشْعُرُ بِالعَطَشِ . وأَخِيرًا رَفَعَ زُجاجَةَ المَاء الطَّاهِرِ لِيشْرَبَ قَلِيلا مِنْهُ ، ومَا إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ ، حَتَّى أَبْصَرَ طِفْلا صَغِيرًا لَطِيفَ الشَّكْلِ ، قَدِ اسْتَلْقَى عَلَى الصُّخُورِ . وصَرَخَ الطِّفلُ ضَارِعًا إِليه أَنْ يَمْنَحَهُ قَطَراتٍ قَلِيلَةٍ مِنَ المَاءِ .

ونَظَرَ إِليه « نُعْمان » فى تَجَهُّمٍ وَهُوَ يَقُولُ : « مَاء ! إِنَّنِى لاأَحْمِلُ نِصْفَ مَاأَحْتَاجُ إِليه مِنهُ .. » .

ثُمَّ تَابَعَ سَيْرَهُ دُونَ أَنْ يَحْفِلَ بِصَرخَاتِ الطِّفْلِ ، الَّذِى أَخَذَ العَطَشُ



يُطْفِئُ فِيهِ نُورَ الحَيَاةِ .

وَبَيْنَما هُوَ يَشْرَعُ فِى مُتَابَعَةِ تَقَدُّمه ، أَخَذَتْ سَحَابَةٌ سوداء تَتَقَدَّمُ مُسْرِعةً مِنَ الغَرْبِ ، فَحَجَبَتْ وَجْهَ الشَّمْسِ ، وأَظْلَمتِ الدُّنْيا .

وتَابَعَ « نُعْمان » تَسلُّقَ الصُّخُور فَتْرَةً أُخْرى ، واحْتَاجَ مَرَّةً ثَانِيَةً إِلَى المَاءِ ، .ومَا إِنْ هَمَّ بِرفْعِ الزُّجَاجَةِ إِلَى شَفَتَيْهِ ، حَتَّى شَاهَدَ أَخَاهُ « رَسْلان » مُسْتَلقِيًا أَمَامَهُ عَلَى الأَرْضِ وَبَيْنَمَا هُوَ يَنْظُرُ إِليه ، خُيِّلَ إِليه أَنَّ

« رسْلان » قدْ رفعَ يديْهِ ، ضارِعًا أنْ يُعْطِيهُ شيْئًا مِنَ الماءِ .

وأطْلقَ « نُعْمان » ضِحْكَةً مُجلْجِلةً ، وقالَ : « هَاهَا .. ماء ؟ ! هلْ تظُنُّ أنَّنى حملْتُ الماءَ كُلَّ هذا الطَّرِيقِ إلى ذلِكَ المكانِ الوعْرِ ، لأمْنحك إيَّاهُ ؟ ! » . ثُمَّ خطَا فوقَ ما بدا أنَّه « رسْلان » ، ولكِنْ فى أثْناءِ عُبُورِهِ خُيِّلَ إليه أنَّ وجْهَ « رَسْلان » قدْ بدا كأنَّما يضْحكُ مِنْهُ ساخِرًا . وسارَ بِضْعَ خُطُواتٍ فى طَرِيقِهِ ، ثُمَّ عاودَ النَّظَرَ خلْفَهُ ، ولكِنَّ « رَسْلانَ » لَمْ يكُنْ هُنَاكَ .. !

وملأَ الخوفُ قلْبَ « نُعْمان » ، دُونَ أنْ يَعْرِفَ السَّببَ ، ولكِنَّهُ كانَ يُحبُّ الذَّهبَ ، ويتُوقُ أنْ يحصُلَ علَيهِ ، فتغَلَّبَ على خوْفِهِ ، وتابعَ سَيْرهُ مُسْرِعًا ..

وأخيرًا وقفَ « نُعْمان » علَى شاطِئ النَّهرِ الذَّهبِىِّ ، وألْقَى بِالزُّجاجَةِ فى النَّهرِ . وما إنْ فعلَ ذلِكَ ، حتَّى هزَّتْ جسدَهُ قشْعَرِيرةٌ بارِدةٌ ، وتلَقَّفتهُ المِياهُ فكتمتْ صرْختهُ ..

وتعالَى خرِيرُ المِياهِ حزِينًا ، كأنَّما يزفِرُ باكيًا ، وهْو يجْرِى فوْقَ قِطْعتيْنِ مِنَ الحجرِ الأسْودِ .



عِنْدما وَجدَ « شِهَابُ » أَنَّ « نعْمَانَ » لَمْ يَعُدْ هُوَ أَيضًا ، انْتَابهُ حُزْنٌ شَدِيدٌ ، ورَأَى أَنْ يَذْهَبَ بِنفْسِهِ إِلى النَّهرِ الذَّهَبِيِّ .

وتَوجَّه « شِهَابُ » إِلى أَحَدِ رِجَالِ الدِّينِ ، وسُرْعَانَ مَا أَعْطَاهُ الرَّجُلُ كُلَّ مَا طَلَبَ مِنْ مَاءٍ طَاهِرٍ ، ثُمَّ أَخذَ مَعَهُ شَيئا مِنَ الخُبْزِ ، وانْطلَقَ فى الصَّباحِ البَاكِرِ إِلَى الجِبَالِ .

وإِذا كَانَ أَخواهُ قَدْ وَجدَا أَنَّ عُبُورَ الصَّخْرَةِ الهائِلَةِ أَمْرٌ شَاقٌّ مَحْفُوفٌ بِالمَخَاطِرِ ، فَقَدْ كَانَ عُبُورُها أَشَقَّ وأَخْطَرَ بِالنِّسبَةِ « لِشِهَابٍ » ، وتَعثَّر عِدَّةَ مَرَّاتٍ ، وسَقَطَ عَلَى الأَرْضِ مَرَّاتٍ أُخْرَى ، وفَقَدَ طَعَامَهُ وما كَانَ مَعَهُ مِنْ ماءٍ خَصَّصَهُ لِلشُّرْبِ ، وأَخِيرًا اسْتطَاعَ أَنْ يَعْبُرَ الصَّخْرَةَ فى أَكْثَرِ أَوْقَاتِ النَّهارِ حَرَارَةً .

وأَحَسَّ « شِهَابُ » بعَطَشٍ شَدِيدٍ . ومَا كَادَ يَرْفَعُ المَاءَ الطَّاهِرَ إِلى شَفَتَيهِ ، حَتَّى شَاهَدَ رَجُلا كَبِيرًا السِّنِّ يَنْزِلُ مِنَ التِّلالِ الواقِعَةِ فَوقَهُ ، وكَانَ الرَّجُلُ يَبْدُو فى حَالَةٍ يُرْثَى لَهَا مِنَ المَرَضِ الشَّدِيدِ ، لايَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلاَّ مُتَوكِّئًا عَلَى عَصَا ، وفى بُطْءٍ شَدِيدٍ .

وقَالَ الرَّجُلُ المُسِنُّ : « هَلْ تَتفضَّلُ يابُنَىَّ بِإِعْطَائِى قَلِيلاً مِنْ هَذَا

المَاءِ » ؟ فَتطلَّعَ إليه « شِهَابُ » ، وعِنْدما تبيَّنَ مِقْدارَ تعبِهِ ومَرضِهِ ، أَعْطَاهُ المَاءَ وهُوَ يقُولُ : « أَرْجُو أَلاَّ تَشْرَبَ كُلَّ مَافى الإِنَاءِ » .

ولكِنَّ الرَّجُلَ شَرِبَ كميَّةً كَبِيرةً ، وعِنْدَما أَعادَ الإِنَاءَ إلى « شِهَابٍ » ، كَانَ مُعْظَمُ المَاء قَدِ اخْتَفَى .

وَوَاصَلَ « شِهَابُ » سيْرَهُ ، مُتَابِعًا تَسلُّقَ الجبَلِ ، لَكِنَّ الطَّرِيقَ بَدَا لَهُ أَقَلَّ وعُورَةً ، وقَدِ ازْدَان بالأَزْهارِ الصَّغِيرَةِ الجَمِيلةِ ، وإِذَا الشَّمْسُ تُرْسِلُ أَشِعَّتَهَا هَادِئَةً دَافِئَةً ، حَتَّى أَحسَّ « شِهَابُ » أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ سَعِيدًا فى أَىِّ يومٍ مِنْ أَيَّامِ حيَاتِهِ ، قَدْرَ سَعَادَتِهِ فى ذَلِكَ اليَومِ .

ومَعَ ذَلِكَ ، فَمَا انْقَضَتْ سَاعَةٌ أُخْرَى ، حَتَّى وَجَدَ « شِهَابُ » أَنَّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ تَحمُّلَ العَطَشِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، وتَطَلَّعَ إِلى الإِنَاءِ فَلَمْ يَجِدْ بِهِ سِوَى خَمْسِ قَطراتٍ أَوْ سِتٍّ ، إِذَا شَرِبَ قَطْرَةً مِنْهَا فَرُبَّمَا لاَيَبْقَى مَا يَكْفِى لِلمُهِمَّةِ الَّتى تَجَشَّمَ مِنْ أَجْلِهَا كُلَّ هَذَا العَنَاءِ .

وأَعَادَ « شِهَابُ » الإِنَاءَ إِلَى مَكَانِهِ بِجَانِبِه ، وفِيمَا هُوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ ، شَاهَدَ كَلْبًا صَغِيرًا قَدِ اسْتَلقَى عَلَى الصُّخُورِ يَكَادُ يَكُونُ مَيِّتًا ، وتَوَقَّفَ « شِهَابُ » ، وَردَّدَ بَصرَهُ بَيْنَ الكَلْبِ والنَّهرِ الذَّهَبِىِّ ، الَّذِى لَمْ يَعُدْ

يَفْصِلَهُ عَنْهُ سِوَى مَسَافَةٍ قَصِيرَةٍ ، وَتَذَكَّرَ وَصَايَا الْمَلِكِ الصَّغِيرِ .. لَقَدْ قَالَ لَهُ : « لَكَ أَنْ تُحَاوِلَ مَرَّةً وَاحِدَةً فَقَط ، وَلَيسَ لَكَ أَنْ تُعِيدَ الْمُحَاوَلَةَ » فَفَكَّرَ « شِهَابُ » فِى أَنْ يَتْرُكَ الْكَلْبَ ، وَلَكِنَّ الْحَيَوانَ الْمَغْلُوبَ عَلَى أَمْرِهِ أَنَّ فِى صَوتٍ حَزِينٍ ضَعِيفٍ ، تَمَزَّقَ لَهُ قَلْبُ « شِهَابٍ » ، فَتَوَقَّفَ ثَانِيَةً يَنْظُرُ إِلَيه وَهُوَ يَقُولُ : « أَيُّهَا الْحَيَوانُ الْبَائِسُ ! سَتَكُونُ قَدْ مُتَّ عِنْدَمَا أَعُودُ إِذَا لَمْ أَمُدَّ لَكَ الآنَ يَدَ الْمُسَاعَدَةِ » .

وَلَمْ يَعُدْ يَتَحَمَّلُ آلَامَ الْحَيَوانِ الْبَائِسِ ، فَرَفَعَ الْغِطَاءَ عَنِ الإِنَاءِ . وَصَبَّ كُلَّ مَا تَبَقَّى فِيهِ فِى فَمِ الْكَلْبِ الْمِسْكِينِ .

مَا إِنْ فَعَلَ « شِهَابُ » ذَلِكَ ، حَتَّى شَاهَدَ شَيْئًا عَجِيبًا : فَقَدْ وَقَفَ الْكَلْبُ عَلَى قَائِمَتَيْهِ الْخَلْفِيَّتَيْنِ ، وَاخْتَفَى ذَيْلُهُ ، وَطَالَتْ أُذُنَاهُ حَتَّى أَصْبَحَتَا جَدَائِلَ شَعْرٍ ذَهَبِيَّةٍ نَاعِمَةٍ ، وَأَخَذَ لَونُ أَنفِهِ يَمِيلُ إِلَى الاحْمِرَارِ ، ثُمَّ اشْتَدَّ اللَّوْنُ الأَحْمَرُ حَتَّى أَصبحَ أَنفُهُ قِرْمِزِيًّا قَانِيًا ، وَالْتَمَعَتْ عَيْنَاهُ ، وَخِلَالَ لَحَظَاتٍ خَاطِفَةٍ ، كَانَ الْكَلْبُ قَدِ اخْتَفَى ، وَوَقَفَ أَمَامَ « شِهَابٍ » صَدِيقُهُ الْقَدِيمُ : مَلِكُ النَّهرِ الذَّهَبِىِّ .

وقَالَ المَلِكُ : « شُكرًا لَكَ ! لِمَاذَا لَمْ تَأْتِ قَبْلاً ؟ لِماذا بعثْتَ بِأَخَوَيْكَ هذينِ ؟ لَقد اضْطَرَرْتُ أَنْ أُحَوِّلَهُمَا إلى قِطْعَتَيْنِ مِنَ الحَجَرِ الأَسْوَدِ ؟ » .

فَصَاحَ « شِهَابٌ » فى حُزْنٍ وعِتَابٍ : لَمْ أَتوقَّعْ مِنْكَ أَنْ تَفعَلَ ذَلِكَ ؟ .. لِمَاذَا صَنَعْتَ هَذَا بِهِمَا ؟ ! » ، فَقَالَ المَلِكُ القَصِيرُ : « لأَنَّهُمَا صَبَّا مَاءً غَيرَ طَاهِرٍ فى نَهْرِى ! هَلْ تَظُنُّ أَنَّنِى أَسْمَحُ لِلنَّاسِ بِأَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ ؟ » ، فَقَالَ « شِهَابٌ » : « لكِنَّنِى واثِقٌ أَنَّهُمَا حَصَلا عَلَى ماءٍ طَاهِرٍ.

فَأَجابَ المَلِكُ ، وقَدْ أَصْبَحَ وجْهُهُ جَادًّا وغَاضِبًا : « لَعَلَّهُمَا قَدْ فَعَلا هَذَا حقًّا ، ولَكِنَّ المَاءَ الَّذِى يَمنْعُهُ صَاحِبُهُ عَمَّنْ يَموتُون عطَشًا ، ويَبْخَلُ بِهِ صَاحِبُهُ عَنْ فِعْلِ الخَيْرِ ، لَيْسَ مَاءً طَاهِرًا ، أَمَّا المَاءُ الَّذِى يُستَخْدَمُ فى صُنْعِ الخَيْرِ ، والَّذِى يُقدِّمُهُ صَاحِبُهُ دَلِيلَ حُبٍّ لِجَمِيعِ الكَائِنَاتِ ، فَهُوَ مَاءٌ طَاهِرٌ ، مَهْمَا كَانَ المَكَانُ الَّذِى يُؤْخَذُ مِنهُ » .

ومَا إِنْ أَتَمَّ المَلِكُ كَلامَهُ هَذَا ، حَتَّى قَطَفَ ورْدَةً كانَتْ بَيْنَ قَدَمَيْهِ رقَدِ اسْتَقَرَّتْ فَوقَهَا ثَلاثُ قَطَراتٍ صَافِيَةٍ مِنْ مَاءِ المَطَرِ ، ووَضَعَ هَذِه

القَطَرَاتِ فِى الإِنَاءِ الَّذِى يَحْمِلُهُ « شِهَاب » ، وقَالَ لَهُ : اسْكُبْ هَذِهِ القَطَرَاتِ فِى النَّهرِ . ثُمَّ اذْهَبْ إِلَى وَادِى الكُنُوزِ .

وَبَيْنَمَا كَانَ يُدْلِى بِهَذِهِ النَّصِيحَةِ ، أَخَذَ قَوَامُهُ يُصْبِحُ شَفَّافًا ، وأَخَذَتْ أَلْوانُ رِدائِهِ تَخْتَلِطُ مُكَوِّنَةً سَحَابَةً مِنَ الأَشِعَّةِ المُتَأَلِّقَةِ ، ثُمَّ هَبَّتْ عَصْفَةُ رِيحٍ ، فَارْتَفَعتْ مَعَهَا السَّحَابَةُ ، واخْتَفَى المَلِكُ .

وَشَقَّ « شِهَابٌ » طَرِيقَهُ إِلَى النَّهرِ الذَّهَبِىِّ ، وإِذا مِيَاهُهُ صَافِيَةٌ كَالبَلُّورِ عِنْدَما تَسْقُطُ عَلَيهِ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ .

وعِنْدَمَا صَبَّ القَطَرَاتِ الثَّلاثِ فِى المَاءِ ، انْفَتَحتْ ثَغْرَةٌ فِى قَاعِ المَجْرَى ، وأَخَذَتْ مِياهُ النَّهْرِ تَتَسَرَّبُ إِلَى بَاطِنِ الأَرْضِ مِنْ خِلالِ تِلْكَ الثَّغْرَةِ .

وَقَفَ « شِهَابٌ » لحْظَةً يَرْقُبُ مَا حَدَثَ . وكَمْ أَحْزَنَهُ أَنَّ النَّهرَ لَمْ يَتحوَّلْ ذَهَبًا ، وبَدَلا مِنْ ذَلِكَ أَخَذَ مَاؤه يَتَنَاقَصُ ويَخْتَفِى شَيْئًا فَشيئًا .

ومَعَ ذَلِكَ اتَّبَعَ نَصِيحَةَ صَدِيقِهِ المَلِك ، واتَّجَه إِلَى وَادِى الكُنُوزِ . وَبَيْنَمَا هُوَ مَاضٍ فِى طَرِيقِهِ إِلَى هُنَاكَ ، خُيِّلَ إِليه أَنَّهُ يَسْمعُ صَوتَ المَاءِ يَشُقُّ لَهُ طَرِيقًا جَدِيدًا تَحْتَ الأَرْضِ ، مُتَّجِهًا إِلَى وَادِى الكُنُوزِ .

ومَا إنْ وَصَلَ إِلَى الوادِى ، حتَّى رَأَى نَهْرًا يُشْبِه النَّهر الذَّهَبِىَّ قَدْ تَفَجَّرَ مِنْ نَبْعٍ جَدِيدٍ يَقَعُ بَيْنَ الصُّخُورِ ، وأَخَذَ يَشُقُّ لَهُ مَجْرًى مُمتَلِئًا بالمَاءِ وَسَطَ أَرْضِ الوَادِى الجَافَّةِ السَّوداءِ . وبَيْنَمَا كَانَ « شِهَابُ » يَقِفُ لِيرقُبَ هَذَا النَّهرَ الجَدِيدَ ، أَنْبَتتِ الأَرْضُ كَثِيرًا مِنَ النَّباتَاتِ الخَضْرَاءِ الزَّاهِيَةِ ، وتَفَتَّحتْ مُخْتَلفُ أَنْواعِ الأَزْهَارِ والوُرُودِ ، وزَيَّنَتْ بِأَلْوانِهَا المُتناسِقَةِ حَافَّاتِ مَجَارِى المَاءِ الوَلِيدَةِ الرَّقْرَاقَةِ .

وإِذَا بِوادِى الكُنُوزِ يَعُودُ لِيُصْبِحَ حَدِيقَةً غَنَّاءَ ، وإِذَا بِخَيرَاتِهِ الَّتى أَضَاعَتْهَا القَسْوةُ وعَدَمُ الرَّحْمةِ ، قَدْ أَعادَهَا الحُبُّ والعَطْفُ والإِيثَارُ .

* * *

وعَادَ « شِهَابُ » يَقْطُنُ الوَادِى ، ولَمْ يَعُدْ الفُقَراءُ يُطْرَدُونَ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ أَخَواهُ مِنْ قَبْل ، بَلْ وَجدَ عِنْدَهُ كُلُّ مِسْكِينٍ يدًا تَمْتَدُّ إِليه بالْعَونِ والمُسَاعَدَةِ .

وامْتَلأَ بَيْتُ « شِهَابٍ » بالخَيْرَاتِ ، وفَاضَتْ مَخَازِنُهُ بِكُلِّ طَيِّبٍ وثَمِينٍ ، وهَكَذَا أَصْبحَ النَّهرُ نَهْرًا مِنْ ذَهَبٍ حقًّا ، كَمَا قَالَ المَلِكُ .

* * *

أسئلة فى القصة

(١) لماذا سمى « نهر الذهب » بهذا الاسم ؟

(٢) لماذا أطلق الناس على الأخوين الكبيرين ، « نعمان ورسلان » ، لقب « الأخوين القاسيين » ؟

(٣) « عليك بالبقاء فى المطبخ ، لمراقبة هذه القطعة الشهية من اللحم » من قال هذه العبارة ؟ ولمن قالها ؟

(٤) كان شهاب يخاف من أخويه ، فهل منعه خوفه من أن يساعد القزم الغريب ؟ وكيف ساعده ؟

(٥) ماذا حدث لرسلان عندما أراد أن يمسك الرجل القصير ؟

(٦) ماالذى أيقظ الأخوين القاسيين عند منتصف الليل ؟ وماذا قال القزم المسن لهما ؟

(٧) ماذا رأى الأخوان عندما طلع النهار ، وتطلعا من نافذة شهاب الصغيرة ؟

(٨) هل صدق القزم عندما قال إن زيارته تلك ستكون الأخيرة لوادى الكنوز ؟ اذكر دليلا على ذلك .

(٩) لماذا امتنع الناس عن شراء الذهب من الأخوين ؟

(١٠) من الذى خرج من الإناء عندما أماله شهاب ليصب الذهب خارجه ؟

(١١) ماالنصيحة التى قدمها ملك النهر الذهبى إلى شهاب ؟

(١٢) ماذا فعل الأخوان « نعمان ورسلان » عندما عرفا أن الإناء قد اختفى ؟

(١٣) من ذهب أولاً إلى النهر الذهبي ؟ وكيف حصل على الماء الطاهر ؟

(١٤) كيف عامل « رسلان » من قابلوه وهو فى طريقه إلى النهر الذهبي ؟

(١٥) ماذا حدث « لرسلان » عندما ألقى بالإبريق فى الماء ؟ وهل اختلف مصيره عن مصير « نعمان » ؟

(١٦) ماذا فعل « شهاب » عندما لم يرجع أخواه ؟

(١٧) هل واجه « شهاب » أية صعاب فى طريقه مثلما واجه أخواه ؟ وبماذا تعلل ذلك ؟

(١٨) « لماذا بعثت بأخويك هذين ، لقد اضطررت أن أحولهما إلى قطعتين من الحجر الأسود » ؟ من قال هذه العبارة ؟ ولمن قالها ؟

(١٩) ماذا رأى « شهاب » بعد أن عاد إلى الوادى ؟

(٢٠) ماالذى تستفيده من هذه القصة ؟

(٢١) اكتب ملخصًا لهذه القصة فى ثلاث صفحات من إنشائك .